كلمة رئيس الجامعة الأنطونيَّة الأب ميشال جلخ
في لقاء إسلامي-مسيحي حول مدينة القدس
"إن نسيتك يا أورشليم..."
خواطرُ في موقع أورشليم القدسِ في اللاهوتِ والوجدانِ المسيحيَّين
٢٩ كانون الأول ٢٠١٧

---

١. أورْشَليمان

تتنازعُ الوجدانَ المسيحيَّ أورْشَليمان. الأولى أورشليمُ التاريخِ والجغرافية، تلك المدينةُ التي شهِدَت أبرزَ أحداث حياة يسوعَ على الأرض، إضافةً إلى نشأة الكنيسة؛ وأورشليمُ السماويَّة، تلك التي وصفها أشعيا في الفصل الستِّين من نبوءته، واستعادها يوحنّا في الفصل الحادي والعشرين، أي الفصلِ ما قبلَ الأخير، من رؤياه، حيثُ كتَب :
"ورأيتُ المدينةَ المقدَّسة، أورشليمَ الجديدةَ، نازلةً من السماءِ من عندِ الله، مهيّأةً مثلَ عروسٍ مزيَّنةٍ لعريسِها. وسمعتُ صوتًا جهيرًا من العرشِ يقول: 'هوَذا مسكنُ الله مع الناسِ، فيسكنُ معهم وهم يكونون شعوبَه، وهو سيكونُ 'اللهَ معهم' وسيمسحُ كلَّ دمعةٍ من عيونِهم. وللموتِ لن يبقى وجودٌ بعد الآن، ولا للحزنِ ولا للصراخِ ولا للألمِ لن يبقى وجود بعد الآن، لأنَّ العالمَ القديم قد زال'". (رؤيا ٢١: ٢-٤)

نحن أمام أورشليمَين متناقضتين، وإن متلازمتان، إذ السماويَّة بينهما هي نقيضُ التاريخيَّة، ولا تقوم إلا بزوالها، بل هي لطالما وُصفت تقريعًا لها على فسادها. الأولى في التاريخ والجغرافيا، والثانية في الاسخاطولوجيا واليوطوبيا، أي في زمنٍ هو هنا وليس بعد، ومكانٍ ليس في المكان. زمنٍ ومكانٍ قد نتخيَّلُهما في نهاية الزمان وامتلائه، لكنَّهما، في الوقت عينه، انتهارٌ مستمرٌ للزمان والمكان كي يمتلئا، انتهارٌ لنا كي نسعى لامتلائهما برًّا وعدلاً وسلامًا .

قضيَّة أورشليم هي، بهذا المعنى، على المِفصل اللاهوتيِّ الأدقّ، أعني مفهومَ التجسُّد، بما هو ذهاب الإله إلى الجسدانيَّة والتحيُّز ثم خروجه منهما، بل صعوده بهما، إلى التعالي والمطلقيَّة .

مِفصل دقيق هو، لأنَّ المسيح ارتضى الانغماس في نسَبٍ وشعبٍ وتراثٍ وجغرافٍ، لكنَّه يأبى أن يكون إلهًا قوميًّا. هو الذي جاء إلى العالم لم يعرفه العالم، فلم يجد فيه مكانًا يسند إليه رأسه... هو الذي قال: "سيأتي يومٌ لا تصلُّون فيه في هذا الموضع – أي جبل جرزيم – ولا في أورشليم" (يو ٤: ٢١)، هو الذي إذ أسلم الروح انشقَّ حجاب الهيكل، وإذ قام، صار هو الهيكلُ الذي لا يُهدم. هو الذي أوصى تلاميذه ألّا يغادروا أورشليم (أع ١: ٤)، طالما لم يحِلَّ عليهم الروح، أما بعدَ ذلك، فعليهم أن يذهبوا في الأرض كلِّها، ولا ينظروا إلى الوراء، ولا حتّى إلى السماء (أع ١: ١١)، فالله ليس في مكان، والمسيح القائم ليس في قبره الفارغ .

٢. حجُّ الأرجل وحجُّ القلب

ليس للجغرافية المقدَّسة موقع بديهيٌّ في اللاهوت المسيحيِّ إذًا، ولقد شهدت القرون الأولى للمسيحيَّة روحَنةً لأورشليم وليس جغرَفَة حيث تمثّلت تاريخيّا في رمز أخرويٍّ تمثلّه الكنيسةُ، "أورشليمُ السماويَّة" التي هي أمُّنا على حدِّ قول القديس بولس في رسالته إلى أهل غلاطية (غل ٤: ٢٦).

أورشليم-الكنيسة، أمُّ الكنائس على حد تعبير الانطاكيِّ يوحنّا الدمشقيِّ، لم تكن يومًا الأولى بين البطريركيّات، بل جاءت الخامسة، ولكنَّها بقيت نموذج (Archétype) المدينة المقدَّسة، ولا قداسة لأيِّ مدينةٍ في العالم المسيحيِّ إلا بوصفها وريثة القُدس . لكنَّها قدسٌ ابتلعها المسيح، على حدِّ تعبير خضر، فصار المسيحيُّون يسمُّون المدن التي يقطُنونها مدنًا مقدسة "تيمُّنًا بأورشليم، وكأنهم يمدُّون هذه إلى العالم كله، كأنهم يذوقون القدس في كل مكان . " مع ذلك ازدهَرَ الحجُّ – بالمعنى الجُغرافيِّ – إلى أورشليم (الجغرافيَّة) اعتبارًا من القرن الرابع. ولا غرابة في ذلك، إذ يصعب على المؤمن ألّا يبالي بما يمكن اعتبارُه الذخيرةَ الأكبر والأغلى، أي المدينة التي شهدت أحداث حياة يسوع .

كثر من آباء الكنيسة ومعلِّميها انتقدوا هذا التوجُّه: ها القديس أغوسطينوس، في تفسيرِه قولَ يسوع إنجيل يوحنّا (٧: ٣٧): "إن عطش أحد فليُقبل إليَّ، ومن آمن بي فليشرب". يقول: لا يدعونا السيِّدُ إلى أن نأتي إليه بأرجلنا، بل بأشواقنا، لا بالمسيرِ، بل بالحبّ. (...) من يمشِ بجسمه، يغيِّر موضعَه بحركة الجسم، ومن يمشِ بقلبه، يغيِّرْ مشاعرَه بحركةِ القلب ؛ وها غريغوريوس النيصيُّ يطلب، في إحدى رسائله، أن: "قولوا للأخوة أن يرتفعوا من الجسد إلى الله، لا أن يسافروا من قبادوقية إلى فلسطين" ؛ وها القديس جيروم - الذي قضى معظم حياته في بيت لحم - يذكِّر بأنَّ المحراب مفتوح في إنكلترا كما في أورشليم، لأنَّ ملكوت الرب فيكم .

بلغ هوسُ المسيحيين بالأماكن المقدَّسة ذروته مع الحروب الصليبيَّة، ومع ذلك بقيت لا محوريَّة الحجِّ في المسيحيَّة موضوعًا شديد الحضور في الأدب الدينيّ. وقد انتقد الشاعر البريطانيُّ جون ميلتون، مثلاً، في ملحمته Paradise Lost، احتشاد الحجّاج الآتين يبحثون، فوق الجلجلة، عن ميتٍ هو حيٌّ في السماء.
“Here pilgrims roam, that strayed so far to seek / In Golgotha him dead, who lives in Heaven.”

وستعود الأراضي المقدَّسة، والقدسُ في طليعتها، إلى واجهة الاهتمامات، مع الانعطافة التاريخانيَّة التي عرفتها العلوم النصِّيَّة وفلسفة الدين، ولا سيَّما مسألة يسوع التاريخ التي أطلقها دافيد شتراوس في ألمانيا (Vie de Jésus ou examen critique de son histoire, 1835)وإرنست رينان في فرنسا.(Vie de Jésus, 1863)

٣. القدس في الفكرِ اللاهوتيِّ العربيّ

وإذا كانت البحوث الآثارية التي أطلقتها ورشةُ البحث عن مسيح التاريخ في أوروبا، هي ما أعاد أورشليم إلى صدارة الاهتمامات الفكريَّة، فإنَّ الحدث الذي أعاد القدس إلى واجهة الأولويّات في عالمنا العربيِّ، هو لا شكّ نكبةُ نشوء دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، ومن ثمَّ سقوطُ القدس تحت الاحتلال عام ١٩٦٧. وفي حين كان العالم يبحث لهذه المدينة عن وضع قانونيٍّ يسمح للحجّاج المسيحيِّين بالوصول إلى الأراضي المقدَّسة، كان المسيحيُّون العرب يحاولون استعادة حقِّهم في المشاركة في النقاش، وتذكيرَ الغرب بأنَّ فلسطين ليست أرضًا بدون شعب، وأنَّ القدس ليست مقامَ حجٍّ وسياحةٍ وحسب، وأنَّ القرون التسع عشرة التي مرَّت على طرد الرومان لليهود من فلسطين لم تكن صحراء تاريخيَّة، بل هي ذاكرةُ مسيحيّين ومسلمين مَقْدِسيِّي الانتماء، لا يجوز أن تمرَّ التسويات السياسيَّة فوق أشلائهم. لذا غدت القضيةُ الفلسطينيَّة ووضع القدس موضوعًا مشتركا عابرًا لكلِّ اللاهوتات السياقيَّة العربيَّة في القرن العشرين، ولا سيَّما في لبنان، وأخصُّ بالذكر نتاجات الأب ميشال حايك، والأب يواكيم مبارك، والمطران جورج خضر.

أ.كان يواكيم مبارك (١٩٢٤-١٩٩٥) يعتبر أنَّ لبنان مريضٌ بفلسطين، مريض بحبِّها: "عندما تُعَنَّفُ فلسطين، يقول، لكأنَّه اغتصابٌ يعيشه لبنان في لحمه. ولكن طالما بقي بين فلسطين ولبنان المريض بها صوتٌ يقول لا، ستبقى القدسُ منيعةً في قلوبنا" . ولطالما دعا إلى قيام دولة عِلمانية في فلسطين، لأنَّ العِلمانية، على حدِّ قوله، هي المساواة المؤسِّسة التي اعطاها الله، لا للمؤمنين وحسب، بل للناس أجمعين، إنَّها أخوَّة لا يُنشئها الإيمان، وإن كان مدعوًّا لنشرها والدفاع عنها. وفي هذا السياق، دعا مبارك إلى تدويل القدس، وسواها من الأماكن المقدَّسة، وإلى عودة الفلسطينيِّين من الشَتات ، بوصفهما شرطين أساسيَّين للمصالحة. ولم يَفُتْهُ، في رسالة وجَّهها إلى فرنسوا مورياك، غداة حرب عام ١٩٦٧، أن يشير إلى أنَّ الصهيونية إنَّما تقتل رجاءَ إسرائيل (بالمعنى البيبليِّ) ورجاءَ المسلمين والمسيحيين، أي أنّها تقتل رجاءَ أورشليم السماويَّة ، وهو رجاءٌ عابر للتراثات الإبراهيميَّة كلِّها، وهذا ما سيتوقَّف عنده طويلاً الأب ميشال الحايك .(1928-2005)

ب. فإنَّ الصراع العربي الإسرائيلي عند الأب ميشال حايك لا يحلُّ إلا انطلاقًا من أساس لاهوتي روحانيّ. فهو، في المحصِّلة، امتدادٌ لصراع اسماعيل وإسرائيل، وعلى المسيحيِّ، وهو عند حايك، الابن الثالث لابراهيم، الابن الذي لا يرتبط به ببنوَّة اللحم، وبالتالي بميراث الأرض، بل ببنوَّة الإيمان، عليه أن يسعى إلى لمِّ الإخوة وإحلال السلام. "حلم المسيحيِّ، يقول، أن تلتقي شعوبُ المشرق وتصبح القدسُ عاصمة السلام" ، لأن الأديان الإبراهيمية الثلاثة إنَّما تضرب لمؤمنيها موعدًا في أورشليم، عشيَّة يوم الدينونة. أورشليم هي اسم وعد مسيحانيٍّ كبير، فيها ستكون عودة المسيح عند المسيحيِّين، ومجيئُه عند اليهود، ونزولُه، عند المسلمين . وإن تدويل المدينة ليس سوى الشكلِ القانوني الضيِّق لمهمَّةٍ أنبل وأصعب، هي كوننة القدس، أي الارتفاع بالانتماء إليها والدفاع عنها إلى مستوى الحبِّ الكبير للذي صلب فيها .

ج. أمّا المطران جورج خضر (١٩٢٣-...)، وهو الصوت الصارخ دفاعًا عن القدس منذ أكثر من نصف قرن، فمحور تأليفه حول مسألة القدس التذكير أنَّها عندنا بشرٌ لا حجَر: "الدمُ الفلسطينيُّ أعزُّ علينا من كلِّ المعابد، لكونِ هذه الأجساد هي هياكل الله الحي" ، إذ "ليس من أركان المسيحيَّة الحجُّ إلى القدس وإلى أيِّ مكان آخرَ لأنَّ الله ليس في مكان. القدس ليست مقرًّا ليسوع الناصريِّ، والقبر خالٍ (...) البحثُ في المدينة بحثٌ في شعبِها لا في ربِّها والأنبياء" . بالتالي، فإنَّ أقدس شيء في المدينة المقدَّسة هو حقُّ سكانها عليها . من هنا رفضه التدويل، لأنَّ المدينةَ لأهلها .

نحن المسيحيِّين، يقول خضر، أورشليمُنا هي المسيح . مع ذلك، أورشليم الأرض تمّ تجاوُزها ولم تُلغَ، لذا نرى إليها معراجًا إلى أورشليم السماويَّة، أي رمزًا لا يغني عن المرموز إليه. الحجُّ إلى أورشليم الأرض تعظيم لناسوتيَّة السيِّد، ولكنَّ الإيغالَ في التفرُّس بالناسوتيَّة قد يعني الإشاحةَ عن ألوهة السيِّد. فحَذار. والحجُّ إلى أورشليم الأرض فوق دماء المظلومين خطيئة. فحَذار.

٤. تذكُّر المستقبل

ختامًا، من لا يشتهي الوقوف حيث وقف الربّ؟ وبهذا المعنى، من يملك أن يقاوم شوقَ التبرُّك بتراب القدس؟ ولكنَّ الشوق هذا ينبغي أن يبقى مشفوعًا بالتذكُّر أنَّ الحجَّ هو "لا إلى البيت بل إلى ربِّ البيت"، كما قالت رابعة العدويَّة، ونحن نعرف أن ربَّ البيت بيتُه الكونُ كلُّه، وإخوتُه هؤلاء الصغار، ومنهم مَن يُقتلون ويُسجنون يوميًّا باسم عاصميَّة القدس.

لذا ليس اشتياقُنا أورشليمَ-القدسَ حنينًا ماضويًّا كحنين الحجّاج والمسبيِّين، هو حنينٌ الى أورشليم التي تنتظر أن نبنيَها، وهي لا تُبنى إلاّ بالعدل والاستقامة. أورشليمُ التي تَشُوقُنا ليست أورشليمَ التي تقطُف دباباتُها الزيتونَ مع زارعيه، بل تلك التي وصفها آشعيا: قضاؤها سلام (أش ٦٠: ١٧)"، وفيها الذين جمعوا الحنطةَ هم يأكلونَها ويسبِّحون الربَّ، والذين جمعوا قطافَ العنبِ هم يشربونَه في ديارِ قُدسي" (أش ٦٢: ٩) .

قضيَّة القدس قضيَّة عدل، لا قضيَّة ما وراء، لذا لا تحلُّها المعاندة على أبديَّة عاصمة أو أبديَّة دولة، فوق حائط مكسور هو أفصحُ دليلٍ على لاأبديَّة كلِّ شيء في عالمنا. قضيَّة عدل هي، لا يمحو السبيُ الجديدُ فيها السبيَ القديم .

قديمًا، جلس كاتبُ المزمور مكسورًا في سبيه، وأنشد: "على أنهار بابل هناك جلسنا، فبكينا عندما تذكَّرْنا صهيون (...) إن نسيتك يا أورشليم فلتنسني يميني وليلتصق لساني بحنكي إن كنت لا أذكرك..." (مز ١٣٧: ١ و ٥)، لا شيء في أيّامنا يشبه مأساتَه أكثر من شتات الفلسطينيِّين في العالم، ومزاميرِهم المتصاعدةِ من مخيَّمات القهر، والمرنِّمةِ دمعًا: "عيونُنا إليك ترحل كلَّ يوم."

بلى، لربَّما هناك بكاءٌ آخر يشبه بكاءَ المسبيِّ على أورشليم، هو بكاء اليهود المزراحيم الذين سُبِيُوا إلى دولة إسرائيل مطلع القرن العشرين، وقبعوا في غربة المستوطنات يبكون - كما في فيلم سمير جمال الدين عام ٢٠٠٣ ، ثم فيلم Fiona Murphy عام ٢٠١٦ - على بغداد، وطنهِم الذي فارقوه.

"فلتنسني يميني إن نسيتك يا أورشليم" (مز ١٣٧: ٥). تردِّدُها المسيحيَّة. لكنَّها تنظر إليها مُوقِنةً أنَّ النبي لا يتوقَّع المستقبَل بل يتذكَّرُه، على حدِّ تعبير الشاعر أدونيس. لذا فلتنسَنا أيْمانُنا إن نسينا أنَّ أورشليمنا لم تُبنَ بعد، وأنَّها ليست سياحةً ولا قبرًا فارغًا، ولا هي حائطٌ مكسور... لتنسَنا أيْماننا إن نسينا أنَّنا منذورون لبناء أورشليم السماويَّة، منذورون لبناء السلام.